ثالثاً: إضاءات في أول الطريق

١- ستُّ ركائز أساسية:

(قال بعضُ الأوائلِ: لا يتمُّ العلمُ إلا بستةِ أشياءَ: ذهنٍ ثاقبٍ، وزمانٍ طويلٍ، وكفايةٍ، وعملٍ كثيرٍ، ومعلِّمٍ حاذقٍ، وشهوةٍ، وكلَّما نقَص مِن هذه الستةِ شيءٌ، نقَص بمقدارِه مِن العلمِ.

وذكَر الشهوةَ؛ لأنَّ النفسَ إذا اشْتَهت الشيءَ، كانت أسمحَ في طلبِه، وأنشطَ لالتماسِه.

وذكَر الكفايةَ؛ لأنَّ التكسُّبَ، وتعذُّرَ المعاشِ مَقْطَعَةٌ... والحاجةُ تميتُ النفسَ.

وذكَر المعلِّمَ الحاذقَ؛ لأنَّه إذا لم يكُنْ حاذقاً، لم يَحْلَ المتعلمُ منه بطائلٍ[1].

وذكَر ثقوبَ الذِّهنِ؛ لأنَّه علةُ القبولِ؛ وسببُ الفهمِ.

وذكَر كثرةَ العملِ؛ لأنَّ مَن لا يدأبُ في الطلبِ وقتَ الفراغِ، وقوةِ الشبابِ، قطَعتْه القواطعُ)[2].

---

(١) لم يَحْلَ بطائل أي: لم يظفر و لم يستفد منها كبيرَ فائدة (لسان العرب، لابن منظور) (١٤/١٩١).

(٢) (الحث على طلب العلم، للعسكري، بتصرف) (ص٤٧ – ٤٩).

٢- من سار على الدرب وصل:

رحِم اللهُ الزرنوجيَّ حيثُ قالَ: (فلمَّا رأيتُ كثيراً مِن طلابِ العلمِ في زماننا، يجِدُّون إلى العلمِ، ولا يَصِلون، ومِن منافِعِه، وثمراتِه، يُحرمون؛ لما أنَّهم أخطؤُوا طرائقَه، وترَكوا شرائطَه، وكلُّ مَن أخطَأ الطريقَ ضلَّ، ولا ينالُ المقصودَ قلَّ أو جلَّ) [١].

قال شيخُ الحنابلةِ في عصرِه ابنُ بدرانَ: (اعلَمْ أنَّ كثيراً مِن الناسِ يَقْضون السنينَ الطوالَ في تعلُّمِ العلمِ، بل في علمٍ واحدٍ، ولا يحصلُون منه على طائلٍ، ورُبَّما قَضَوْا أعمارَهم فيه، ولم يَرتقُوا عن درجةِ المبتدئين، وإنَّما يكونُ ذلك لأحدِ أمْرَيْن:

أحدُهما: عدمُ الذكاءِ الفطريِّ، وانتفاءُ الإدراكِ التصوريِّ، وهذا لا كلامَ لنا فيه، ولا في علاجِه. والثاني: الجهلُ بطُرُقِ التَّعليمِ) [٢].

٣- التلقِّي من أفواه العلماء:

ما أحسنَ توجيهَ الزرنوجيِّ لطالبِ العلمِ حينَ قالَ:

(ويَنبغي لطالبِ العلمِ، أن لا يختارَ نوعَ العلمِ بنفسِه، بل يفوِّضُ أمرَه إلى الأستاذِ؛ فإنَّ الأستاذَ قد حصَل له التجاربُ في ذلك، فكان أعرفَ بما ينبغي لكلِّ أحدٍ، وما يليقُ بطبيعتِه، وكان الشيخُ.. برهانُ الدينِ يقولُ رحِمه اللهُ: كان طلبةُ العلمِ في الزمنِ الأولِ يُفوِّضونَ أمرَهم في

---

(١) (تعليم المتعلم، للزرنوجي) (ص٢).

(٢) (المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، لابن بدران) (١/٢٦٥).

التعلمِ إلى أستاذِهم، فكانوا يَصِلون إلى مقصودِهم، ومرادِهم، والآنَ يختارون بأنفسِهم، فلا يحصلُ مقصودُهم مِن العلمِ، والفقهِ)[١].

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ:

(الأصلُ في الطلبِ، أن يكونَ بطريقِ التَّلْقينِ، والتَّلقِّي عن الأساتيذِ، وقد قِيل: مَن دخَل في العلمِ وحدَه؛ خرَج وحدَه. أي: مَن دخَل في طلبِ العلمِ بلا شيخٍ؛ خرَج منه بلا علمٍ؛ إذ العلمُ صنعةٌ، وكلُّ صنعةٍ تحتاجُ إلى صانعٍ، فلا بدَّ إذاً لتعلُّمِها مِن مُعلِّمِها الحاذقِ.

وكان أبو حيَّانَ كثيراً ما يُنشِدُ:

يظنُّ الغَمْرُ أنَّ الكُتْبَ تَهْدِي ... أخَا فَهْمٍ لإدراكِ العلومِ
وما يَدْري الجهولُ بأنَّ فيها ... غوامضَ حيَّرتْ عقلَ الفهيمِ
إذا رُمتَ العلومَ بغيرِ شيخٍ ... ضَللتَ عن الصِّراطِ المستقيمِ
وتلتبسُ الأمورُ عليك حتَّى ... تصيرَ أضلَّ مِن تُومَا الحكيمِ)[٢]

ذكَر الشَّاطبيُّ في معرضِ حديثِه عن اتِّفاقِ الناسِ على افتقارِ الجاهلِ إلى المعلِّمِ، قولَ بعضِهم: (إنَّ العلمَ كان في صدورِ الرِّجالِ، ثمَّ انتقَلَ إلى الكتبِ، وصارَتْ مفاتحُه بأيْدِي الرِّجالِ).

قال الشاطبيُّ معلقاً على ذلك: (وهذا الكلامُ يقضي بأن لا بدَّ في تحصيلِه مِن الرجالِ؛ إذ ليسَ وراءَ هاتين المرتبتين مَرْمى عندَهم، وأصلُ

---

(١) (تعليم المتعلم) (ص١٠).

(٢) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد، بتصرف) (ص٢٤، ٢٢).

هذا في الصحيحِ: ((إنَّ اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعُه مِن الناسِ، ولكنْ يقبضُه بقَبضِ العُلماءِ...)) الحديثَ[١]، فإذا كان كذلك؛ فالرِّجالُ هم مفاتحُه بلا شكٍّ)[٢].

٤- انظر.. عمن تأخذ دينك ؟

قال الزرنوجيُّ: (يَنْبَغي أن يختارَ الأعلمَ، والأورعَ، والأسنَّ، كما اختارَ أبو حنيفةَ رحِمه اللهُ حمَّادَ بنَ سليمانَ رحِمه اللهُ، بعدَ التأملِ والتفكرِ، وقال: وجدْتُه شيخاً، وقوراً، حليماً، صبوراً . وقال : ثبتٌ عندَ حمادِ بنِ سليمانَ فنبتٌ)[٣].

قال مالكٌ: (لا يُؤخذُ العلمُ مِن أربعةٍ، ويُؤخذُ ممنْ سِوَى ذلك: لا يُؤخذُ مِن سفيهٍ معلنٍ بالسَّفهِ، وإن كان أروَى الناسِ، ولا يؤخذُ مِن كذَّابٍ، يكذِبُ في أحاديثِ الناسِ، إذا جُرِّب ذلك عليه، وإن كان لا يُتَّهم أن يكذِبَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا مِن صاحبِ هوًى يدعُو الناسَ إلى هواه، ولا مِن شيخٍ له فضلٌ، وعبادةٌ، إذا كان لا يعرِفُ ما يُحدِّثُ)[٤].

قال ابنُ جماعةَ: (يَنبغِي للطالبِ أنْ يقدِّمَ النَّظرَ، ويستخيرَ اللهَ فيمن

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) (الموافقات، للشاطبي) (١/١٤٠).

(٣) (تعليم المتعلم، للزرنوجي) (ص٦).

(٤) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (١/٢١٢).

يأخذُ العلمَ عنه، ويكتسبَ حسنَ الأخلاقِ، والآدابَ منه، ولـيكنْ إن أمكَن ممنْ كملَتْ أهليتُه، وتحقَّقتْ شفقتُه، وظهرَتْ مروءتُه، وعُرِفتْ عِفَّتُه، واشتهرَتْ صيانتُه، وكان أحسنَ تعليماً، وأجودَ تفهيماً، ولا يرغبُ الطالبُ في زيادةِ العلمِ، معَ نقصٍ في ورعٍ، أو دينٍ، أو عدمِ خُلقٍ جميلٍ، فعن السَّلفِ: (هذا العِلمُ دينٌ، فانْظُروا عمَّنْ تأخُذون دينَكم)[١].

قال جعفرُ بنُ محمدٍ: (إذا رأيتُم العالمَ محبًّا لدُنياه؛ فاتَّهِمُوه على دينِكم، فإنَّ كلَّ محبٍّ لشيءٍ يحوطُ ما أحبَّ)[٢].

قال الذهبيُّ: (قرأتُ بخطِّ الشيخِ الموفقِ قال: سمِعنا درسَه - أي: ابنِ أبي عصرونَ - مع أخي أبي عمرَ وانقَطعْنا، فسمِعتُ أخي يقولُ: دخلتُ عليه بعدُ، فقال: لِمَ انْقَطعتُم عنِّي ؟ قلتُ: إنَّ أناساً يقولون: إنَّك أشعريٌّ، فقال: واللهِ ما أنا أشعريٌّ. هذا معنَى الحكايةِ)[٣].

٥- اتباع خير القرون:

أوصَى الإمامُ شيخُ الإسلامِ أبو عمرٍو الأوزاعيُّ تلميذَه بقيَّةَ بنَ الوليدِ بوصيةٍ، فقال: (يا بقيةُ، العلمُ ما جاءَ عن أصحابِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وما لم يَجِئْ عن أصحابِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فليسَ بعلمٍ، يا بقيَّةُ لا تذكُرْ أحداً مِن أصحابِ محمدٍ نبيِّك صلَّى اللهُ عليه وسلم إلا بخيرٍ، ولا أحداً مِن أُمَّتِك، وإذا سمِعتَ أحداً يقعُ في غيرِه، فاعلمُ أنَّه

---

(١) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة) (ص٨٥).

(٢) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (١/٦٧٠).

(٣) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (٢١/١٢٩).

إنَّما يقولُ: أنا خيرٌ منه)[١].

قال مالكٌ وقد ذُكِر له كتابُه الموطأُ: (فيه حديثُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وقولُ الصحابةِ والتابعين ورأيُهم، وقد تكلَّمتُ برَأْيي على الاجتهادِ، وعلى ما أدركتُ عليه أهلَ العلمِ ببلدِنا، و لم أخرُجْ عن جملتِهم إلى غيرِه)[٢].

وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ: (إذا كان في المسألةِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم حديثٌ؛ لم نأخُذْ فيها بقولِ أحدٍ مِن الصحابةِ و لا مَن بعدَهم خلافَه، وإذا كان في المسألةِ عن أصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قولٌ مختلفٌ، نختارُ مِن أقاويلِهم، و لم نخرُجْ عن أقاويلِهم إلى قولِ مَن بعدَهم، وإذا لم يكُنْ فيها عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا عن الصحابةِ قولٌ، نختارُ مِن أقوالِ التَّابعِين)[٣].

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (كنْ سلفيًّا على الجادَّةِ، طريقِ السَّلفِ الصالحِ مِن الصحابةِ رضِيَ اللهُ عنهم، فمَن بعدَهم ممنْ قفَا أثرَهم في جميعِ أبوابِ الدِّينِ، مِن التوحيدِ، والعباداتِ، ونحوِها، متميزاً بالتزامِ آثارِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وتوظيفِ السننِ على نفسِك، وتركِ الجدالِ، والمراءِ، والخوضِ في علمِ الكلامِ، وما يجلِبُ الآثامَ، ويصدُّ عن الشرعِ)[٤].

---

(١) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (٧٦٩/١).

(٢) (ترتيب المدارك، للقاضي عياض) (٧٣/٢).

(٣) (المسودة، لآل تيمية) (٢٧٦/١).

(٤) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص٨).

❖ طبقات العلم:

روَى نوحٌ الجامعُ، عن أبي حنيفةَ أنَّه قال: (ما جاءَ عن الرسولِ صلى الله عليه وسلم، فعلى الرأسِ والعينِ، وما جاءَ عن الصحابةِ اخترنا، وما كان مِن غيرِ ذلك، فهم رجالٌ ونحن رجالٌ) (١).

وقال الشافعيُّ: (العلمُ طبقاتٌ:

الأُولَى: الكتابُ والسنةُ، إذا ثَبَتت السنةُ.

ثم الثانيةُ: الإجماعُ، فيما ليس فيه كتابٌ ولا سنةٌ.

والثالثةُ: أنْ يقولَ بعضُ أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا نعلمُ له مخالفاً منهم.

والرابعةُ: اختلافُ أصحابِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّم، ورضِي عنهم.

والخامسةُ: القياسُ على بعضِ هذه الطبقاتِ، ولا يُصارُ إلى شيءٍ غيرِ الكتابِ والسنةِ، وهما موجودان، وإنما يُؤخَذُ العلمُ مِن أعلَى) (٢).

(قال الرَّبيعُ: سمعتُ الشافعيَّ يقولُ، وسألَه رجلٌ عن مسألةٍ فقال: يُروَى عن النبيِّ أنَّه قال كذا وكذا. فقال له السائلُ: يا أبا عبدِالله، أتقولُ بهذا؟ فارتَعدَ الشافعيُّ، واصفرَّ، وحالَ لونُه، وقال: وَيْحَكَ، أيُّ أرضٍ تُقِلُّني وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني، إذا روَيتُ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم

---

(١) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (٦/٤٠١).

(٢) (المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقي) (١/١١٠).

شيئاً فلم أقُلْ به؟ نَعمْ، على الرأسِ والعينِ)[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: (إيَّاك أنْ تتكلمَ في مسألةٍ، ليس لك فيها إمامٌ)[٢].

وقال ابنُ رَجبٍ: (وفي زماننا يتعينُ كتابةُ كلامِ أئمةِ السَّلفِ المقتدَى بهم إلى زمنِ الشافعيِّ، وأحمدَ، وإسحاقَ، وأبي عُبيدٍ، وليكُنِ الإنسانُ على حذرٍ مما حدَث بعدَهم؛ فإنَّه حدَثتْ بعدَهم حوادثُ كثيرةٌ، وحدثَ مَن انتسبَ إلى متابعةِ السنةِ والحديثِ، وهو أشدُّ مخالفةً لها؛ لشذوذِه عن الأئمةِ، وانفرادِه عنهم بفهمٍ يفهمُه، أو يأخذُ ما لم يأخذْ به الأئمةُ مِن قبلِه)[٣].

وقال أيضاً: (وفي كلامِهم - أي: السلفِ - كفايةٌ وزيادةٌ، فلا يُوجدُ في كلامِ مَن بعدَهم مِن حقٍّ، إلا وهو في كلامِهم موجودٌ، بأوجزِ لفظٍ، وأخصرِ عبارةٍ، ولا يوجدُ في كلامِ مَن بعدَهم مِن باطلٍ، إلا وفي كلامِهم ما يُبينُ بطلانَه لمن فهِمه وتأمَّلَه، ويوجدُ في كلامِهم مِن المعاني البديعةِ، والمآخذِ الدقيقةِ، ما لا يَهتدي إليه مَن بعدَهم، ولا يُلِمُّ به، فمَن لم يأخُذِ العلمَ مِن كلامِهم فاتَه ذلك الخيرُ كلُّه، معَ ما يقعُ في كثيرٍ مِن الباطلِ، متابعةً لمن تأخَّر عنهم)[٤].

---

(١) (طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي) (١٣٨/٢).

(٢) (مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي) (ص١٧٨).

(٣) (بيان فضل علم السلف على علم الخلف، لابن رجب، بتصرف) (ص٦٩).

(٤) (بيان فضل علم السلف، لابن رجب) (ص٦٨).

٦- الزم قولاً.. ولا تتشوَّش:

على الطالبِ (أن يحذرَ في ابتداءِ أمرِه مِن الاشتغالِ في الاختلافِ بينَ العلماءِ، أو بينَ الناسِ مطلقاً في العقلياتِ، والسمعياتِ؛ فإنَّه يُحيِّرُ الذِّهنَ ويدهشُ العقلَ، بل يتقنُ أولاً كتاباً واحداً، في فنٍّ واحدٍ، أو كتباً في فنونٍ إن كان يحتملُ ذلك.

أمَّا إذا تحقَّقتْ أهليَّةُ المتعلِّمِ، وتأكَّدتْ معرفتُه، فالأَوْلَى أن لا يدعَ فنًّا مِن العلومِ الشرعيةِ إلا نظَر فيه، فإنْ ساعدَه طولُ العمرِ على التبحُّرِ فيه، فذاك، وإلا فقد استفادَ منه ما يخرُجُ به مِن عداوةِ الجهلِ بذلك العلمِ، ويعتني مِن كلِّ علمٍ بالأهمِّ فالأهمِّ، ولا يغفلَنَّ عن العملِ الذي هو المقصودُ بالعلمِ)[1].

٧- خطوة.. خطوة:

التدرُّجُ في طلبِ العلمِ وحفظِه أمرٌ مهمٌّ، فلا يَستعجِل طالبُ العلمِ الثمرةَ، فيُعاقَبَ بالحرمانِ، وما يأتي سريعاً يذهبُ سريعاً.

قال الزهريُّ ليونسَ بنِ يزيدَ: (يا يونسُ، لا تكابرِ العلمَ؛ فإنَّ العلمَ أوديةٌ، فأيُّها أخذتَ فيه، قطَع بك قبلَ أنْ تبلُغَه، ولكن خُذْه معَ الأيامِ والليالي، ولا تأخُذِ العلمَ جملةً؛ فإنَّ مَن رامَ أخْذَه جملةً ذهَب عنه جملةً، ولكنْ الشيءُ بعدَ الشيءِ معَ الليالي والأيامِ)[2].

قال ابنُ عبدِالبرِّ: (طلبُ العلمِ درجاتٌ، ومناقلُ، ورتبٌ، لا ينبغي

---

(١) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرف) (ص ١١٦ – ١٢٠).

(٢) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (١/٤٣١).

تعدِّيها، ومَن تعدَّاها جملةً فقد تعدَّى سبيلَ السلفِ رحِمهم اللهُ، ومَن تعدَّى سبيلَهم عامداً ضلَّ، ومَن تعدَّاه مجتهداً زلَّ)[١].

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (فأمامَك أمورٌ لابدَّ مِن مراعاتِها في كلِّ فنٍّ تطلبُه:

- حفظُ مختصَرٍ فيه.
- ضبطُه على شيخٍ متقنٍ.
- عدمُ الاشتغالِ بالمطولاتِ وتفاريقِ المصنفاتِ قبلَ الضبطِ والإتقانِ لأصلِه.
- لا تنتقلْ مِن مختصَرٍ إلى آخرَ بلا موجبٍ، فهذا مِن بابِ الضجرِ.
- اقتناصُ الفوائدِ والضوابطِ العلميةِ.
- جمعُ النفسِ للطلبِ والتَّرقِّي فيه، والاهتمامُ والتحرقُ للتحصيلِ والبلوغِ إلى ما فوقَه)[٢].

❖ خذ بقدر ما تطيق:

قال الخطيبُ البغداديُّ: (ولا يأخذُ الطالبُ نفسَه بما لا يطيقُه، بل يقتصِرُ على اليسيرِ الذي يضبطُه، ويُحكِمُ حفظَه ويُتقِنُه.

قال إسماعيلُ بنُ عُلَيَّةَ: كنتُ أسمعُ مِنْ أيُّوبَ خمسةً، ولو حدَّثني بأكثرَ مِن ذلك ما أردتُ) .

---

(١) (المصدر السابق) (١١٢٩/٢).

(٢) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص ١٨ - ١٩).

قال سُفيانُ الثوريُّ: كنتُ آتي الأعمشَ ومنصوراً، فأسمعُ أربعةَ أحاديثَ، خمسةً، ثم أنصرفُ، كراهةَ أن تكثُرَ وتَفلَّتَ.

وعن شُعبةَ قال: كنتُ آتي قتادةَ، فأسألُه عن حديثين، فيحدِّثُني، ثمَّ يقولُ: أزيدُكَ؟ فأقولُ: لا، حتى أحفظَهما وأُتقنَهما [١].

٨- ابدأْ بالأَوْلَى، فالأَوْلَى:

مِن توجيهاتِ أبي العباسِ بنِ قدامةَ المقدسيِّ لطالبِ العلمِ المبتدئِ، قولُه:

(ابتدِئْ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ثم بسنَّةِ رسولِه صلى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ بعلومِ القرآنِ مِن التفسيرِ ومِن ناسخٍ ومنسوخٍ، ومحكمٍ ومتشابهٍ، إلى غيرِ ذلك، وكذلك في السنةِ، ثم اشتغِلْ بالفروعِ وأصولِ الفقهِ، وهكذا بقيَّةُ العلومِ على ما يتسعُ له العمرُ، ويساعدُ فيه الوقتُ، ولا تستغرقْ عمرَك في فنٍّ واحدٍ منها؛ طلباً للاستقصاءِ؛ فإنَّ العلمَ كثيرٌ والعمرَ قصيرٌ)[٢].

قال الزَّبيديُّ نقلاً عن صاحبِ الذريعةِ: (يجبُ أن لا يخوضَ طالبُ العلمِ في فنٍّ حتى يتناولَ مِن الفنِّ الذي قبلَه على الترتيبِ بُلْغَتَه، ويقضي منه حاجتَه، فازدحامُ العلمِ في السمعِ مضلةُ الفهمِ... فيجبُ أنْ يقدِّمَ الأهمَّ فالأهمَّ، مِن غيرِ إخلالٍ في الترتيبِ، وكثيرٌ مِن الناسِ مُنعُوا الوصولَ لتركِهم الأصولَ؛ وحقُّه أن يكونَ قصدُه مِن كلِّ علمٍ يتحرَّاه، التبلُّغَ به

(١) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للخطيب، بتصرف) (١/٣٥٤- ٣٥٦).

(٢) (مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة) (ص٣٠ – ٣١).

إلى ما فوقَه، حتى يبلغَ النهايةَ)[١].

٩- مراحل التعلم:

(كان المأمونُ يُوصي بعضَ بنيه، فيقولُ: اكتبْ أحسنَ ما تسمعُ، واحفظْ أحسنَ ما تكتبُ، وحدِّثْ بأحسنِ ما تحفظُ)[٢].

وقال ابنُ المباركِ: (أوَّلُ العلمِ النيةُ، ثم الاستماعُ، ثم الفهمُ، ثم الحفظُ، ثم العملُ، ثم النشرُ)[٣].

١٠- أدوات تحصيل العلم:

أ- السماع والكتابة:

قال بعضُهم: (كنتُ عندَ بعضِ العلماءِ، فكنتُ أكتبُ عنه بعضاً، وأدعُ بعضاً، فقال لي: اكتبْ كلَّ ما تسمعُ، فإنَّ أخسَّ ما تسمعُ خيرٌ مِن مكانِه أبيض)[٤].

قال الشيخُ عبدُالكريمِ الخضير: (التجربةُ أثبتَتْ أنَّه كلَّما سهلَ الحصولُ على الكتاب، أو على المعلومةِ ضعُفَتِ الإفادةُ.

خشِي العلماءُ على التحصيلِ مِن جرَّاءِ الطباعةِ؛ فأفتَى علماءُ الأزهرِ بتحريمِ طباعةِ الكتبِ الشرعيةِ، فأذِنوا بطباعةِ كتبِ التاريخِ والأدبِ واللغةِ وغيرِها، أمَّا الكتبُ الشرعيةُ فلا، وكان طالبُ العلمِ في

---

(١) (إتحاف السادة المتقين، للزبيدي ، بتصرف) (٥٤٣/١).

(٢) (تقييد العلم، للخطيب البغدادي) (ص١٤١).

(٣) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (٤٧٦/١).

(٤) (الحيوان، للجاحظ) (٥٨/١).

السابقِ إذا احتاجَ إلى كتابٍ، اضْطُرَّ إلى نسخِه.

ومعاناةِ الكتابةِ أفضلُ مِن القراءةِ مراراً، فأنت إذا احتجْتَ إلى كتابٍ، لا بدَّ أنْ تكتبَ الكتابَ، أو تستعيرَه، وتنسخَه، أو تُدوِّنَ ما يهمُّك منه، هل هذا مثل أن تذهبَ إلى مكتبةٍ وتشتريَ كتاباً، وترصَّه معَ إخوانِه في الأدراجِ؟!)[١].

قال الفِرَبْريُّ: (كنتُ معَ محمدِ بنِ إسماعيلَ بمترلِه ذاتَ ليلةٍ، فأحصيتُ عليه أنَّه قامَ، وأسْرجَ، يستذكرُ أشياءَ يعلقُها في ليلةٍ، ثمانِ عشرةَ مرةً)[٢].

وحكَى الحُمَيديُّ عن الشافعيِّ لَمَّا كانا بمصرَ، أنَّه كان يخرجُ في بعضِ الليالي، فإذا مصباحُ مترلِ الشافعيِّ مُسرَجٌ، فيصعَدُ إليه، فإذا قرطاسٌ ودواةٌ، قال الحميديُّ: فأقولُ: مَهْ يا أبا عبدِالله! فيقولُ: (تفكَّرتُ في معنَى حديثٍ - أو في مسألةٍ - فخفتُ أنْ يذهبَ عليَّ، فأمرتُ بالمصباحِ، وكَتَبْتُه)[٣].

وفي ترجمةِ أبي الفرجِ ابنِ الجَوْزِيِّ صاحبِ التصانيفِ الكثيرةِ أَنَّهُ: (كانَ لا يضيعُ من زمانِهِ شيئاً، يكتبُ في اليومِ أربعَ كراريسَ، ويرتفعُ لَهُ كلَّ سنةٍ من كتابَتِهِ، ما بينَ خمسينَ مجلداً إلى ستينَ)[٤].

---

(١) (كيف يبني طالب العلم مكتبته، للخضير).

(٢) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (١٢/٤٠٤).

(٣) (آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم) (ص٤٤،٤٥).

(٤) (ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب) (١/٤١٢).

وقالَ سِبْطُهُ: (إنَّهُ سمعَهُ على المنبرِ في آخرِ عمرِهِ، يقولُ: كتبتُ بإصبعِي هاتينِ، أَلفَي مجلدةٍ)[١].

فائدة:

❖ الكتب الجامعة للفوائد:

دوَّن كثيرٌ مِن العلماءِ فوائدَهم في كتبٍ مُفردةٍ، مثل:

١-(الفنون)، لابنِ عَقيلٍ، وهو مِن أضخمِ الكتبِ.

٢-(الفوائد العونية)، للوزيرِ ابنِ هبيرةَ.

٣-(صيد الخاطر)، لابنِ الجوزيِّ.

٤-(قيد الأوابد)، في (٤٠٠ مجلد)، للدعوليِّ.

٥-(عيون الفوائد)، في (٦ أسفار)، لابنِ النَّجَّارِ.

٦-(بدائع الفوائد)، و(الفوائد)، لابنِ القيِّمِ.

٧-(التذكرة)، في (٥٠ مجلدا)، للكنديِّ.

٨-(مجمع الفوائد ومنبع الفرائد)، في نحوِ (١٠٠ مجلد)، للمقريزيِّ كالتذكرةِ له.

٩-تذكرة السيوطيِّ في أنواعِ الفنونِ في (٥٠ مجلدا)، وغيرُها كثيرٌ.

ب- الحفظ:

قال العسكريُّ: (الحفظُ لا يكونُ إلا مع شِدَّةِ العنايةِ، وكثرةِ الدرسِ، وطولِ المذاكرةِ. والمذاكرةُ حياةُ العلمِ، وإذا لم يكنْ درسٌ، لم

---

(١) (ذيل طبقات الحنابلة) (١/٤١٠).

يكنْ حفظٌ، وإذا لم تكنْ مذاكرةٌ، قلَّتْ منفعةُ الدرسِ، ومَن عوَّل على الكتابِ، وأخلَّ بالدرسِ والمذاكرةِ، ضاعَتْ ثمرةُ سَعْيِه، واجتهادِه في طلبِ العلمِ...

وأنشَدَ النَّظَّامُ قولَ محمدِ بنِ البشيرِ:

أما لو أعِي كلَّ ما أسمعُ ... وأحفظُ مِن ذاك ما أجمعُ
ولم أستفدِ غيرَ ما قدْ سمِعتُ ... لقِيلَ هو العالمُ المصقعُ
ولكنَّ نَفْسِي إلى كلِّ شيءٍ ... مِن العلمِ تسمعُه ترتعُ
فلا أنا أحفظُ ما قدْ جمعتُ ... ولا أنا مِن جمعِه أشبعُ
وأحضرُ بالصمتِ في مَجْلسِي ... وعِلْمِي في الكتبِ مُستودَعُ
ومَن يَكُ في علمِه هكذا ... يكنْ دهرَه القَهْقَرَى يرجعُ
إذا لم تكنْ حافظاً واعياً ... فجمعُك للكُتْبِ لا ينفعُ

وكان الخليلُ بنُ أحمدَ يقولُ: اجعلْ ما في كتابِك رأسَ المالِ، وما في صدرِكَ للنفقةِ.

وقال الزُّهريُّ: إنَّ الرجلَ ليطلبُ، وقلبُه شعبٌ مِن الشِّعابِ، ثم لا يلبثُ أن يصيرَ وادياً، ولا يوضعُ فيه شيءٌ إلا الْتَهَمَهُ.

يريدُ أنَّ أولَ الحفظِ شديدٌ، يشقُّ على الإنسانِ، ثمَّ إذا اعتادَه سهلَ، ومصداقُ ذلك ما أخبَرَ به الشيخُ أبو أحمدَ عن الصوليِّ عن الحارثِ ابنِ أُسامةَ قال: كان العلماءُ يقولون: كلُّ وِعاءٍ أفرَغْتَ فيه شيئاً فإنَّه يضيقُ، إلا القلبَ، فإنَّه كلَّما أُفرِغ فيه اتَّسعَ.

وينبغي للدارسِ أنْ يرفعَ صوتَه في درسِه، حتى يُسْمِعَ نَفْسَه، فإنَّ ما سمِعتْه الأُذنُ، رسخَ في القلبِ؛ ولهذا كان الإنسانُ أوعَى لما يسمَعُه منه لِمَا يقرأُه.

وحُكِي عن أبي حامدٍ أنَّه كان يقولُ لأصحابِه: إذا دَرسْتُم فارْفَعُوا أصواتَكم؛ فإنَّه أثبتُ للحفظِ؛ وأذهبُ للنومِ.

وكان يقولُ: القراءةُ الخفيةُ للفهمِ، والرفيعةُ للحفظِ والفهمِ.

وكان ابنُ الفُراتِ لا يتركُ كلَّ يومٍ إذا أصبَحَ، أن يحفظَ شيئاً وإنْ قَلَّ)[1].

(وقال الخليلُ بنُ أحمدَ: تكثَّرْ مِن العلمِ لتعرفَ، وتقلَّلْ مِنه لتحفظَ.

وقال أبو إسحاقَ: القليلُ والكثيرُ للكتبِ، والقليلُ وحدَه للصَّدْرِ)[2].

❖ للحفظِ طريقتانِ ولكلٍّ منهما مميزاتُها وعيوبُها:

(الطريقةُ الأولَى:

وهي أنفعُ للصِّغارِ والشبابِ ومَن أُوتِي موهبةَ الحفظِ: وهي بأنْ يُقرِّرَ الطالبُ على نفسِه لكلِّ يومٍ جزءاً يسيراً مِن العلمِ، كأنْ يكونَ حديثاً، أو حديثين، أو أكثرَ، ويُسْتَحسَنُ أنْ يكونَ قدراً يسيراً، فإنَّ القليلَ يثبتُ، والكثيرَ لا يُحَصَّلُ؛ فيتحفظُ هذا المقرَّرَ يوميًّا، حتى يُغَيِّبَه في صدرِه. ويستمرُّ على ذلك فترةً طويلةً، هي سنواتُ طلبِه للعلمِ، مع تعهُّدِ المحفوظِ دائماً.

---

(١) (الحث على طلب العلم، للعسكري، بتصرف) (ص٦٧ - ٧٧).

(٢) (الحيوان، للجاحظ) (١/٥٨،٥٩).

الطريقةُ الثانيةُ:

وهي أنفعُ لكبارِ السنِّ ولمنْ لم يُؤْتَ موهبةَ الحفظِ: وتتلخَّصُ في إدمانِ مجالسةِ الكتبِ، وإدامةِ القراءةِ فيها، والجَلَدِ في ذلك والصبرِ عليه، مع الإكثارِ مِن النَّسْخِ والكتابةِ، وتعويدِ اليدِ على ذلك)[١].

❖ **مِن الأسبابِ التي يُستعانُ بها على الحفظِ:**

- **اجتنابُ المحرماتِ وتركُ المنهياتِ**

قال ابنُ مسعودٍ رضِي اللهُ عنه: (إنِّي لأحسبُ أنَّ الرَّجلَ يَنْسَى العِلمَ قد علِمَه بالذَّنبِ يعملُه)[٢].

وقال رجلٌ للإمامِ مالكٍ: (يا أبا عبدِاللهِ، هل يصلحُ لهذا الحفظِ شيءٌ؟ قال: إنْ كانَ يصلحُ له شيءٌ فتركُ المعاصي)[٣].

- **اغتنامُ الأوقاتِ المناسبةِ للحفظِ**

رُوِي أنَّ المنذرَ قال للنُّعمانِ ابنه: (يا بُنيَّ، أُحِبُّ لك النَّظرَ في الأدبِ بالليلِ، فإنَّ القلبَ بالنهارِ طائرٌ، وبالليلِ ساكنٌ، وكلَّما أوْعَيْتَ فيه شيئاً علقَه).

قال الخطيبُ البغداديُّ معلقاً على هذه الوصيةِ: (إنَّما اخْتاروا المطالعةَ بالليلِ لخُلُوِّ القلبِ، فإنَّ خُلُوَّه يسرِعُ إليه الحفظُ، ولهذا لَمَّا قِيل لحمَّادِ بنِ زيدٍ: ما أعونُ الأشياءِ على الحفظِ؟ قال: قِلَّةُ الغمِّ.

---

(١) (نصائح منهجية، لحاتم العوني،بتصرف) (ص٦٣،٦٢).

(٢) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (٦٧٥/١).

(٣) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (٣٨٧/٢).

وليسَ تكونُ قِلَّةُ الغمِّ إلا معَ خُلُوِّ السرِّ وفراغِ القلبِ، والليلُ أقربُ الأوقاتِ إلى ذلك)[١].

- **إحكامُ الحفظِ بكثرةِ تكريرِه**

قال ابنُ الجوزيِّ: (الطريقُ في إحكامِه كثرةُ الإعادةِ، والناسُ يَتفاوتُون في ذلك، فمِنْهم مَن يثبتُ معه المحفوظُ معَ قلةِ التكرارِ، ومِنْهم مَن لا يحفظُ إلا بعدَ التكرارِ الكثيرِ.

وكانَ أبو إسحاقَ الشيرازيُّ، يُعِيدُ الدَّرْسَ مائةَ مرةٍ، وكان الكيا الهراسيُّ يعيدُ سبعينَ مرةً. وقال لنا الحسنُ بنُ أبي بكرٍ النيسابوريُّ الفقيهُ: لا يحصلُ الحفظُ إليَّ حتى يعادَ خمسينَ مرةً. وحكَى لنا الحسنُ أنَّ فقيهاً أعاد الدرسَ في بيتِه مراراً كثيرةً، فقالتْ له عجوزٌ في بيتِه: قد واللهِ حفِظْتُه أنا! فقال: أعِيدِيه، فأعادَتْه؛ فلمَّا كان بعدَ أيامٍ، قال: يا عجوزُ، أعِيدِي ذلك الدرسَ، فقالَتْ: ما أحْفَظُه، قال: إنِّي أُكرِّرُ عندَ الحفظِ لئلا يُصِيبَني ما أصابَك)[٢].

- **الجهرُ بقراءةِ ما يُرادُ حفظُه**

قالَ الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ: (دخَل عليَّ أبي وأنا أرْوِي في دفترٍ ولا أجهرُ، أرْوِي فيما بيني وبينَ نفسي، فقال لي: إنَّما لك مِن رِوايتِك هذه ما أدَّى بصرُك إلى قلبِك فإذا أردْتَ الروايةَ فانظُرْ إليها واجْهَرْ بها؛ فإنَّه يكونُ لك

---

(١) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (٢/٤٠٠ - ٤٠١).

(٢) (الحث على حفظ العلم، لابن الجوزي) (ص٢١).

ما أدَّى بصرُك إلى قلبِك، وما أدَّى سمعُك إلى قلبِك)[١].

❖ سعة حفظ بعض العلماء:

كان أبو رأسٍ المعسكريُّ - محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ القادرِ الجزائريُّ (ت:١٢٣٩) - يُذكَرُ بقوةِ حافظتِه، وسَعَةِ اطِّلاعِه، واتُّهِم بسببِ ذلك، وحُكِي (أنَّ جماعةً مِن تلاميذِه تذاكروا في قوةِ حافظتِه وكأنَّهم اتَّهمُوه بالاختلاقِ، فرَكَّبُوا اسْماً نطَق كلُّ واحدٍ مِنهم بحرفٍ مِنه، وجَعَلوه اسماً لمِلكٍ، وسألوا الشيخَ عنه، فأمْلَى لهم ترجمتَه، وسيرتَه وأعمالَه، فاتَّفَقوا أنَّ الشيخَ كاذبٌ!!.

ولَمَّا طالَتِ المدةُ، وقَف أحدُهم على الاسمِ والسيرةِ في كتابٍ تاريخيٍّ على نحوِ ما كانَ أملاه الشيخُ أبو رأسٍ عليهم، فعلِموا أنَّ الشيخَ صادقٌ، وهم مُقصِّرون مُتَّهِمون الشيخَ ممَّا هو مِنه بريءٌ.
قال الكتانيُّ: وهذه حالةُ كبارِ الحفَّاظِ مع القاصِرينَ والجاهِلينَ)[٢].

❖ ج- المذاكرة:

قال الخطيبُ: (ينبغي أنْ يتذاكرَ مواظِبو مجلسِ الشيخِ ما وقَع فيه مِن الفوائدِ، والضوابطِ، والقواعدِ، وغيرِ ذلك، وأنْ يُعِيدوا كلامَ الشيخِ فيما بينَهم، فإنَّ في المذاكرةِ نفعاً عظيماً، وتكونُ المذاكرةُ عندَ القيامِ مِن مجلسِه قبلَ تفرُّقِ أذهانِهم، وتشتُّتِ خواطِرِهم، وشُذوذِ بعضِ ما سمِعوه عن أفهامِهم ... وأفضلُ المذاكرةِ مذاكرةُ الليلِ، فإن لم يَجِدِ الطالبُ مَن

(١) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (٤٠٢/٢).
(٢) (فهرس الفهارس، للكتاني) (١٥١/١).

يذاكرُه، ذاكَر نفسَه بنفسِه، وكرَّرَ معنَى ما سمِعه، ولفظَه على قلبِه؛ ليعلقَ ذلك على خاطرِه؛ فإنَّ تَكرارَ المعنَى على القلبِ، كتكرارِ اللفظِ على اللسانِ، سواءً بسواءٍ، وقلَّ أنْ يُفلِحَ مَن يقتصرُ على الفكرِ والتعقلِ، بحضرةِ الشيخِ خاصةً، ثم يتركُه ويقومُ، ولا يعاودُه)[١].

وعن عليِّ بنِ الحسنِ بنِ شقيقٍ قال: (قُمْتُ معَ ابنِ المباركِ ليلةً باردةً، ليخرجَ مِن المسجدِ، فذاكَرَني عندَ البابِ بحديثٍ، وذاكَرْتُه، فما زال يُذاكِرُني، حتَّى جاءَ المؤذِّنُ، فأذَّنَ للفجرِ)[٢].

وعن عطاءٍ قال: (كنَّا نكونُ عندَ جابرِ بنِ عبدِاللهِ رضِي اللهُ عنهما، فيُحَدِّثُنا، فإذا خَرَجْنا مِن عندِه تذاكَرْنا حديثَه، فكان أبو الزُّبيرِ أحفظَنا للحديثِ)[٣].

وقال عبدُاللهِ بنُ المعتزِّ: (مَن أكثَرَ مذاكرةَ العلماءِ لم يَنْسَ ما علِم، واستفادَ ما لم يعلَمْ)[٤].

عن عبدِالعزيزِ بنِ أبي حازمٍ، قال: (قال أبي: كان الناسُ فيا مضَى مِن الزَّمانِ الأوَّلِ إذا لقِي الرَّجلُ مَن هو أعلمُ منه قال: اليومَ يومُ غُنْمِي. فيتعلمُ مِنه، وإذا لقِي مَن هو مثلُه قال: اليومَ يومُ مُذاكرتي. فيُذاكِرُه، وإذا لقِي مَن هو دونَه علَّمه، ولم يَزْهُ عليه، حتى صار هذا الزمانُ، فصار الرَّجلُ

---

(١) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرف) (ص١٤٣- ١٤٥).

(٢) (تذكرة الحفاظ، للذهبي) (١/٢٧٧).

(٣) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (١/٣٦٥).

(٤) (المصدر السابق) (٢/٤١٥).

يَعِيبُ مَن فوقَه ابتغاءَ أنْ ينقطعَ منه حتَّى لا يَرَى النَّاسُ أن له إليه حاجةً، وإذا لقِي مَن هو مثلُه لم يُذاكِرْه، فهلَك الناسُ عندَ ذلك)[١].

وعن ابنِ عمرَ رضِى اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّما مَثَلُ صاحبِ القرآنِ كمثلِ صاحبِ الإبلِ المعقَّلةِ، إنْ عاهَــدَ عليها أمْسكَها، وإنْ أطْلَقَها ذهَبتْ)) [٢].

قال الحافظُ ابنُ عبدِالبرِّ: (وفي هذا الحديثِ دليلٌ علَى أنَّ مَن لم يَتعاهَدْ عِلمَه ذهَب عنه أي مَن كان؛ لأنَّ عِلمَهم كان ذلك الوقتَ القرآنَ لا غيرُ، وإذا كان القرآنُ الميسرُ للذِّكْرِ يذهبُ إن لم يُتَعاهَدْ، فما ظنُّكَ بغيرِه مِن العلومِ المعهودةِ؟! وخيرُ العلومِ ما ضُبِط أصلُه، واسْتُذْكِر فرعُه، وقادَ إلى اللهِ تعالَى، ودلَّ علَى ما يَرْضاه)[٣].

❖ الوسائلُ المعينةُ لطالبِ العلمِ:

– (أنْ يُقلِّلَ مِن نومِه، ما لم يَلْحَقْه ضررٌ في بدنِه وذهنِه، ولا يزيدُ في نومِه عن ثمانِ ساعاتٍ، إنِ احتَملَ حالُه أقلَّ مِن ذلك فعَل.

– أكْلُ القدرِ اليسيرِ مِن الحلالِ؛ فكثرةُ الأكــلِ جالبــةٌ لكثــرةِ الشربِ، ثمَّ كثرةِ النومِ، وحصولِ البلادةِ، وقصورِ الذِّهنِ، وفتورِ الحواسِّ، وكسلِ الجسمِ.

---

(١) (المصدر السابق) (٢/٢٧٦).

(٢)أخرجه البخاري(٥٠٣١) ومسلم (٧٨٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) (التمهيد، لابن عبد البر) (١٤/١٣٣-١٣٤).

قال القَحْطانيُّ في نُونيَّتِه:

لا تحشُ بَطْنَكَ بالطَّعامِ تَسَـــمُّناً فجُسومُ أهلِ العلـــمِ غـــيرُ سمـــانِ
لا تَتَّبعْ شهواتِ نفسك مُسْـــرفاً فاللهُ يُـــبغِضُ عابـــداً شَهْوانـــي
أقلِلْ طعامَك ما استطَعْتَ فإنَّـــه نَفْعُ الجُســـومِ وصـــحةُ الأبـــدانِ
وامْلكْ هواكَ بضَبْطِ بَطْنِك إنَّـــه شرُّ الرِّجـــالِ العـــاجزُ البطنـــان

- أن يأخذَ نفسَه بالورعِ في جميعِ شؤونه، ويتحرَّى الحـــلالَ في طعامِه وشرابِه ولباسِه ومسكنِه، وفي جميعِ ما يحتاجُ إليه هـــو وعيالُـــه؛ ليستنيرَ قلبُه، ويصلحَ لقبولِ العلمِ ونورِه والنفعِ به.

قال عبدُالله بنُ المباركِ:

يا طالبَ العِلمِ بـــادرِ الوَرَعَـــا وهاجِرِ النَّـــومَ واهجُـــرِ الشِّـــبَعَا

- ألا يخالطَ في الغالبِ إلا مَن يُفيدُه أو يستفيدُ منه.

قال الزرنوجيُّ: (وأما اختيارُ الشريكِ فيَنْبغي أن يختـــارَ المُجِـــدَّ، والورِعَ، وصاحبَ الطبعِ المستقيمِ والمتفهمَ، ويفرَّ مِن الكسلانِ، والمعطلِ، والمكثارِ، والمفسدِ، والفتَّانِ)[1].

١١- الاهتمام بعلم الحديث:

❖ أهمية تعلم علم الحديث

للهِ دَرُّ القائلِ:

(ديـــنُ الـــنبيِّ محمـــدٍ أخبـــارُ نِعْـــمَ المطيـــةُ للفتَـــى الآثـــارُ

(١) (من هدي السلف في طلب العلم، لمحمد بن مطر الزهراني، بتصرف) (٥٠-٥٤).

لا ترغبنَّ عنِ الحـــديثِ وأهلِـــه فالرأيُ ليـــلٌ والحـــديثُ نهـــارُ
ولرُبَّما غلطَ الفتَى سبلَ الهُـــدَى والشمسُ بازغةٌ لهـــا أنـــوارُ)[1]

وأحْسنَ مَن قال:

دينُ الرسولِ وشـــرعُه أخبـــارُه و أجـــلُّ علـــمٍ يُقْتَنَـــى آثـــارُه
مَن كانَ مشتغِلاً بها وبنشـــرِها بينَ البريـــةِ لا عَفَـــتْ آثـــارُه[2]

قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أوْلَى الناسِ بي يومَ القيامـــةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً)) [3]. وحسَّنه غيرُ واحدٍ.

قال ابنُ حِبَّانَ بعدَ إخراجه هذا الحديثَ في صحيحِه: (في هـــذا الخبرِ دليلٌ علَى أنَّ أوْلَى الناسِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وســـلَّم في القيامـــةِ أصحابُ الحديثِ؛ إذْ ليسَ مِن هذه الأُمةِ قومٌ أكثرَ صلاةً عليه مِنهم)[4].

وعلى طالبِ العلمِ (أنْ يبكِّرَ بسماعِ الحديثِ، ولا يهملَ الاشتغالَ به، وبعلومِه، والنَّظرَ في إسنادِه، ورجالِه، ومعانيه، وأحكامِه، وفوائـــدِه، ولغتِه، وتواريخِه، ويَعْتَني بمعرفةِ أنواعِه، صحيحِها، وحسنِها، وغيرِها؛ فإنَّ الحديثَ أحدُ جناحَيِ العلمِ بالشريعةِ، المبيِّنُ لكثيرٍ مِن الجناحِ الآخرِ، وهو القرآنُ، ولا يقنعَ بمجرَّدِ السَّماعِ، بل يَعْتَني بالدرايةِ أشـــدَّ مِـــنَ اعتنائِـــه

(١) (شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي) (ص٧٦).
(٢) (البلدانيات، للسخاوي) (ص٧٥).
(٣) أخرجه الترمذي (٤٨٤).
(٤) (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، لابن بلبان) (١٩٢/٣، ١٩٣).

بالروايةِ؛ لأنَّ الدرايةَ هي المقصودُ بنقلِ الحديثِ، وتبليغِه)[١].

قال أبو حاتمٍ: (قال لي أبو زُرْعَةَ: ما رأيتُ أحرصَ على طلبِ الحديثِ مِنك، فقلتُ له: إنَّ عبدَالرحمنِ ابني لحريصٌ. فقال: مَن أشبهَ أباه فما ظلَم). قال الرقامُ: (فسألتُ عبدَالرحمنِ عن اتِّفاقِ كثرةِ السماعِ له، وسؤالاتِه لأبيه، فقال: رُبَّما كان يأكلُ وأقرأُ عليه، ويَمْشِي وأقرأُ عليه، ويدخلُ الخلاءَ وأقرأُ عليه، ويدخلُ البيتَ في طلبِ شيءٍ وأقرأُ عليه)[٢].

- الحديثُ بينَ الروايةِ والدرايةِ:

قال الخطيبُ البغداديُّ: (كرِه مالكٌ، وابنُ إدريسَ، وغيرُهما الإكثارَ مِن طلبِ الأسانيدِ الغريبةِ، والطرقِ المستنكرةِ... مما يتتبَّعُ أصحابُ الحديثِ طرقَه، ويُعْنَوْن بجمعِه؛ والصحيحُ مِن طرقِه أقلُّها، وأكثرُ مَن يجمعُ ذلك الأحداثُ منهم، فيَتحَفَّظونها، ويَذاكِرون بها، ولعلَّ أحدَهم لا يعرفُ مِن الصحاحِ حديثاً، وتَراه يذكرُ مِن الطرقِ الغريبةِ، والأسانيدِ العجيبةِ، التي أكثرُها موضوعٌ، وجلُّها مصنوعٌ، ما لا ينتفعُ به، وقد أذهَبَ مِن عمرِه جزءاً في طلبِه، وهذه العلةُ هي التي اقتطعَتْ أكثرَ مَن في عصرِنا مِن طلبةِ الحديثِ عن التفقُّهِ به، واستنباطِ ما فيه مِن الأحكامِ، وقد فعَل متفقِّهَةُ زماننا كفعلِهم، وسلَكُوا في ذلك سبيلَهم، ورغِبوا عن سماعِ السُّننِ مِن المحدِّثِين، وشغَلوا أنفسَهم بتصانيفِ المتكلِّمين، فكِلا الطَّائِفَتَين

---

(١) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرف) (ص١٢٦- ١٣٣).

(٢) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (١٣/٢٥٠،٢٥١).

ضيَّع ما يَعْنِيه، وأقبَلَ على ما لا فائدةَ فيه)[١].

- الحديث بين حفظ الرواية والرعاية:

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (ولْيَحذَرْ أن يجعلَه سبيلاً إلى نيلِ الأعراضِ، وطريقاً إلى أخذِ الأعواضِ، فقد جاءَ الوعيدُ لمن ابتغَى ذلك بعلمِه.

ولْيَتَّقِ المفاخرةَ والمباهاةَ به، وأنْ يكونَ قصدُه في طلبِ الحديثِ نيلَ الرئاسةِ، واتِّخاذَ الأتباعِ، وعقدَ المجالسِ؛ فإنَّ الآفةَ الداخلةَ على العلماءِ أكثرُها مِن هذا الوجهِ.

ولْيَجْعَلْ حفظَه للحديثِ حفظَ رعايةٍ لا حفظَ روايةٍ؛ فإنَّ رواةَ العلومِ كثيرٌ، ورعاتَها قليلٌ، ورُبَّ حاضرٍ كالغائبِ، وعالمٍ كالجاهلِ، وحاملٍ للحديثِ ليسَ معه مِنه شيءٌ؛ إذ كان في اطِّراحِه لحكمِه بمنزلةِ الذاهبِ عن معرفتِه وعلمِه)[٢].

١٢- الأدب مع المعلم:

(قال الشافعيُّ: كنتُ أصفحُ الورقةَ بينَ يديْ مالكٍ صفحًا رفيقاً؛ هيبةً له، لئلا يسمعَ وَقْعَها.

وقال الرَّبيعُ: واللهِ ما اجترأتُ أنْ أشربَ الماءَ والشافعيُّ ينظرُ إليَّ هيبةً له)[٣].

---

(١) (شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي) (١٢٩،١٣٠).

(٢) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص٣٨).

(٣) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة) (ص٨٨).

وذكَر الخطيبُ أنَّ على طالبِ العلمِ (أن يصبرَ على جفوةٍ تصدرُ مِن شيخِه أو سوءِ خلقٍ، ولا يصدَّه ذلك عنْ ملازمتِه وحسنِ عقيدتِـــه، ويتأولَ أفعالَه التي يظهرُ أنَّ الصوابَ خلافُها على أحسنِ تأويلٍ، ويبدأَ هو عندَ جفوةِ الشيخِ بالاعتذارِ والتوبةِ مما وقَع والاستغفارِ، وينسبَ الموجبَ إليه، ويجعلَ العَتْبَ عليه؛ فإنَّ ذلك أبقَى لمودةِ شيخِه، وأحفـــظُ لقلبِـــه، وأنفعُ للطالبِ في دُنياه وآخرتِه.

اصبرْ لدائِك إنْ جفوتَ طبيبَه واصبرْ لجهلِك إنْ جفوتَ معلمًا.

وأنْ يَشكُرَ الشيخَ على توقيفِه على ما فيه فضيلةٌ، وعلى توبيخِه على ما فيه نقيصةٌ، أو على كسلٍ يَعْتريه، أو قصورٍ يُعاينه أو غيرِ ذلك مما في إيقافِه عليه وتوبيخِه، إرشادُه وصلاحُه، ويعدُّ ذلك مِن الشيخِ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى عليه باعتناءِ الشيخِ به ونظرِه إليه، فإنَّ ذلك أمثلُ إلى قلبِ الشيخِ وأبعثُ على الاعتناءِ بمصالحِه)[1].

قال أبو هلالٍ العَسكريُّ: (وجعَل الحكماءُ مترلةَ العلماءِ مثلَ مترلةِ الملكِ فقالوا: مِن أدبِ الداخلِ على العالِمِ، أن يُسلِّمَ على أصحابِه عامَّـــةً، ويخصَّه بالتحيةِ، ويجلسَ قدَّامَه، ولا يشيرَ بيدِه، ولا يغمزَ بعينه، ولا يقولَ بخلافِ قولِه، ولا يغتابَ عندَه أحداً، ولا يُسارَّ في مجلسِه، ولا يُلحَّ عليـــه إذا كسَل، ولا يُعْرِضَ عن كلامِه، فإنَّه بمترلةِ النخلةِ، لا يزالُ يسقطُ عليك منها شيءٌ ينفعُك)[2].

---

(١) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، بتصرف) (ص٩١ – ٩٣).

(٢) (الحث على طلب العلم، للعسكري) (ص٨٤).

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (فلْيكُنْ شيخُك محلَّ إجلالٍ منك وإكرامٍ وتقديرٍ وتلطفٍ، فخذْ بمجامعِ الآدابِ معَ شيخِك في جلوسِك معه، والتحدُّثِ إليه، وحسنِ السؤالِ والاستماعِ، وحسنِ الأدبِ في تصفُّحِ الكتابِ أمامَه ومع الكتابِ، وتركِ التطاوُلِ والمماراةِ أمامَه، وعدمِ التقدُّمِ عليه بكلامٍ أو مسيرٍ أو إكثارِ الكلامِ عندَه، أو مداخلتِه في حديثِه ودرسِه بكلامٍ مِنك، أو الإلحاحِ عليه في جوابٍ، متجنباً الإكثارَ مِن السؤالِ، ولا سيَّما مع شهودِ الملأِ، فإنَّ هذا يُوجبُ لك الغرورَ وله الملَلَ...)[1].

❖ بم تكون القدوة؟

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (القدوةُ بصالحِ أخلاقِه وكريمِ شمائلِه، أمَّا التلقِّي والتلقينُ فهو ربحٌ زائدٌ، لكن لا يأخذُك الاندفاعُ في محبةِ شيخِك فتقعَ في الشَّناعةِ مِن حيثُ لا تَدْري، وكلُّ مَن ينظرُ إليك يَدْري، فلا تقلِّدْه بصوتٍ ونغمةٍ، ولا مشيةٍ وحركةٍ وهيئةٍ، فإنَّه إنَّما صارَ شيخاً جليلاً بتلك، فلا تسقطْ أنت بالتبعيةِ له في هذه)[2].

(١) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص٢٥).

(٢) (المصدر السابق) (ص٢٧).